

الإلياذة مع الأدب العربي

(دراسة مقارنة)

لتوارد الخواطر وتواصل الحضارات

د/ أحمد طاهر حسنين(*)

المهاد النظري :

عادةً ما يردّد النقاد ومؤرخو الأدب العربي أن " الأدب مرآة أو صورة للحياة " تنعكس فيها ومن خلالها كافة أنماط الحياة بكل ما يعتورها أو يكتنفها من خير أو شرّ ، حب أو كراهية ، تفاؤل أو تشاؤم ، وما شابه ذلك . وقد نبادر هنا فنضيف إلى هذه المقولة أن "الحياة بطبيعتها المتغيرة هي نبض الأدب وملهمته" ، وذلك يفرض على الباحث في الأدب أن يصيخ جيداً للحياة ، وأن يستجيب لمعطياتها ، بما يقتضيه أن يقارب أحوال الحياة إلى الأدب ، وأن ينظر إلى الأدب من خلال الحياة .

هذا وتتعدّد أجناس الأدب مابين شعر ونثر ، ويكون الشعر غنائياً أو روائياً (مأساة أو ملهاة أو ميلودراما) أو ملحمياً ، كما يكون النثر فنياً أو روائياً أو ملحمياً أو وظيفياً مباشراً في مقال أو خاطرة . الموضوع في هذا البحث ، عن الشعر الملحمي ممثلاً في إلياذة هوميروس وهي التي كتبها شعراً ، وتمّ تعريبها شعراً أيضاً عام ١٩٠٤م ، وبعد مائة عام من هذا التاريخ ، تُرجمت الإلياذة نثراً عام ٢٠٠٤م . ويتم الاعتماد هنا على النسخة

(*) أستاذ بقسم اللغة العربية - جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا

المُعَرَّبَة أو الترجمة الشعرية . وإذ نبحث عن معنى كلمة "ملحمة"، نجد أن مرجعها للتحام القتال، ومعناها اللغوي: الواقعة العظيمة، وربما قصد بها كما يقول سليمان البستاني معرّب الإلياذة : الإحكام، من "لحم الأمر" بمعنى أحكمه.

وقد شاع هذا بين العرب الأوائل حيث يقال: ألحم فلان الشعر أى حاكه ونظمه تشبيهاً لببيت الشعر بيت الشعر وبالثوب المحول : إشارة إلى تأليف أجزائه بإحكام اللحمة بين بعضه وبعض . زاد العرب بإطلاق تسميات قصائد بمواصفات خاصة استقوها أحياناً من الناقة المنتقاة وهي المستدقة الخلقة ، وأحياناً أطلقوا عليها المنتقيات أي (المختارات) ، أو المعلقات ، التي علقت على أركان البيت أو الكعبة الشريفة، والمذهبات أي المكتوبة بمادة الذهب، والمراثي وهي معروفة، والمشويات وهي التي خلطت عناصرها ، وأخرى أسموها الملحومات وهي القصائد التي أحكم نظمها والتحم شعرها، وهي سبعٌ للشعراء : الفرزدق، جرير، الأخطل ، عبيد الراعي ، ذو الرمة، الكميت، والطرمّاح بن حكيم الطائي. (الإلياذة، الجزء الأول ، مقدّمة المترجم : ص ١٦٢) برغم كل ذلك ، لم يثبت عند المشاركة العرب أنهم استخدموا مصطلح الملاحم علماً على الشعر النظير لما قدّمه هوميروس في الإلياذة ، وعلى عكس المشاركة في هذا المجال ، استحدث أهل المغرب بعض أسماء لمنظومات الشعر القصصي ، منها اسم الملاحم، وهي عندهم أشبه بما يسمى الملاعب ، بالشعر العامّي أو الدارج ، وهو ما تضمن نظاماً أحوال أمة أو قوم ، وفُصّلت فيه وقائع الحروب والتاريخ. (السابق ، ص ١٦٢، ١٦٣) .

هذا عن المعنى اللغوي في كلمة ملحمة بوجه عام ، أما في مجال الأدب ، فالمحمة، جنس أدبي بمثابة قصة بطولية، لغتها شعرية ، لم تكن

الإلياذة أول ما كتب بالشعر، لأن الشعر قد ذوّن الكثير منه قبل الإلياذة بعصور، وذلك مخالف لما اتبعه كل من : الهنود والمصريين والعرب (السابق ص ١٠٩) . والملحمة بها أفعال عجيبة وأحداث وحوادث خارقة للعادة، كما أنّ بها أوصافاً وحوارات ، وخطباً ومقولات شعرية متعددة ترقى إلى أن تكون حكماً أو تربية، إلى جانب استخدام الأسلوب الخطابي أحياناً للإقناع بوجهة نظر المتحدث أو بالأحرى: الإقناع بوجهة نظر الكاتب . الحكاية في الملحمة هي العصب أو الجوهر المسيطر على كل شيء ، ولا يغيب عنا هنا ، أن الملحمة تزخر بالعديد من الاستطرادات والأحداث العارضة ، وبشكل غير متوقّع . الملحمة إلى جانب كل هذا ، فيها خليط من أحداث يفعلها الناس والأرواح والجن والآلهة ، كما يوجد بها أيضاً تدخل للملائكة والشياطين على السواء . بالملحمة كذلك، بطولات أسطورية ومعجزات ربما لها أصول تاريخية ، إلى جانب أنها تعرض أو تمزج ما بين الحقائق والخيالات.

هذا ، وتتعدّد أنواع الملاحم، حيث ننتيّن أربعة أنواع ، هي :

(أ) ملاحم شعبية وطنية، مثل: الإلياذة، ، والأوديسا ، لهوميروس اليوناني.

(ب) ملاحم دينية، مثل: الكومبديا الإلهية ، لدانتي الإيطالي، والتي تأثر فيها برسالة الغفران ، لأبي العلاء المعري (ت ٤٥٠ هـ) .

(جـ) ملاحم رومانسية أو ذات نظرة ميتافيزيقية ، مثل: الفردوس المفقود ، لميلتن الإنجليزي .

(د) ملاحم رمزية تشير إلى وقائع حقيقية ، مثل: مغامرات تليماك ، للكاتب الفرنسي فينلون (١٦٥١ - ١٧١٥م) . (د/محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن ، ط ٣ ، نهضة مصر ، القاهرة ، صفحات ١٤٤-١٥٩ بتصرف) .

هذا عن الملحمة والملاحم بشكل عام ، فماذا عن ملحمة الإلياذة لهوميروس ؟

تتألف الإلياذة هوميروس من أربعة وعشرين نشيداً ، تتركز في عمومها حول خصومة واشتعال وقائع ومعارك ، وتتحدد الأولى في خمس وقائع مضافاً إليها عدد آخر من وقائع (أخيل والآلهة، على حين تصل المعارك في الإلياذة إلى سبع معارك. يتخلل هذا كله عدد من المواقف عن بدء الخصام بين قائد ورئيس أخيل وأغاممنون، سياسة أغاممنون، بروز قائدين جديدين ، نقض العهد، وإرسال وفود وتحسس أو تجسس الأعداء ليلاً، إلى جانب بعض أمور وجدانية كمكر هيرا ببعْلِها، وإغارة أخيل على فطرقل ، وتحفز الآلهة، وكذلك رد الفعل الحزين لإعادة جثة فطرقل إلى أهله . وإذا كانت خصومة أخيل وأغاممنون قد بدت في النشيد الأول، فإن أوان المصالحة قد طال كثيراً حيث لم يتعال إلا في النشيد الرابع عشر . تقع الإلياذة في جزأين ، في ١١٥٠ صفحة ، احتلت مقدمة البستاني منها مائتي صفحة وهي مقدمة وافية ضافية ومتميزة إلى حد كبير . (الجزء الثاني يبدأ بصفحة ٦٢٢ ، وعلى القارئ مراعاة ذلك عند إيراد صفحات التوثيق) (خصص البستاني معجماً للأعلام الواردة بالإلياذة، صفحات ١٢٠١ - ١٢٥٢ في ٥٢ صفحة) .

ذلك وتتكوّن الإلياذة من ٢٤ أربعة وعشرين نشيداً ، عناوينها جاءت على النحو التالي :

النشيد الأول: خصام أخيل وأغامنون ، ص ٢٠١ بالجزء الأول من الإلياذة (بعد المقدمة)/النشيد الثاني: سياسة أغاممنون وإحصاء الإغريق والطرواد ، ص ٢٤٧ / النشيد الثالث: بروز منيلاس وفاريس ، ص ٣١٠ / النشيد الرابع: نقض العهد والوقعة الأولى ، ص ٣٤٨ / النشيد الخامس: بطش ذيوميد، ص ٣٨٤ / النشيد السادس: اجتماع غلوكس بذبوحيد؟؟ ووداع هكطور لزوجته، ص ٤٣٦ / النشيد السابع: بروز هكطور وإياس ، ص ٤٨٣ / النشيد الثامن: الواقعة الأولى، ص ٥١٤ / النشيد التاسع: إرسال الوفود لاسترضاء أخيل ، ص ٥٤٩ / النشيد العاشر: أوديس وذيوميد يتجسسان العدو ليلا ، ص ٥٩٢ / النشيد الحادي عشر: المعركة الثالثة ص ٦٢٢ بالجزء الثاني من الإلياذة / النشيد الثاني عشر: وقعة الخندق ، ص ٦٦٦ / النشيد الثالث عشر: الوقعة الرابعة ، ص ٦٩١ / النشيد الرابع عشر: مكر هيرا ببيعها زفس ، ص ٧٣٤ / النشيد الخامس عشر: الوقعة الخامسة وبسالة إياس ، ص ٧٧٤ / النشيد السادس عشر: المعركة السادسة ومقتل قطرفل ، ص ٨١١ / النشيد السابع عشر: المعركة السابعة حول جثة قطرفل ، ص ٨٥٨ / النشيد الثامن عشر: تفجع أخيل على قطرفل ووصف الترس الذي صنعه له إله النار، ص ٨٩٠ / النشيد التاسع عشر: مصالحة أغامنون وأخيل ، ص ٩٣٢ / النشيد العشرون: تحفز الآلهة للقتال وبتش أخيل ، ص ٩٥٧ / النشيد الحادي والعشرون: وقائع أخيل وقتال الآلهة، ص ٩٨٣ / النشيد الثاني والعشرون: مقتل هكطور ، ص ١٠١٣ / النشيد الثالث والعشرون: مأتم قطرفل ، ص ١٠٥٢ / النشيد الرابع والعشرون: إعادة جثة قطرفل إلى أهله ، ص ١١٠٥ .

قد نتشوف إلى معرفة شيء عن مكانة هوميروس عند اليونان ، باختصار ، ظلّ اليونان يصعدون بهوميروس حتى أخرجوه من مصافّ البشر ، وأحلّوه بين الآلهة وبنوا له المعابد، وكانوا يتعاطفون ويتأفرون ويتأفسون ويتحمسون على نحو ما كان يفعل العرب في سوق عكاظ ، وشعرائهم في كل ذلك كخيل الرهان: السابق السابق منهم: الجواد . وبالمثل، الشاعر الموسيقي فنداروس الذي نبغ بعد هوميروس بأربعة قرون ، كان إذا جلس للإنشاد في الحفلات الأوليمبية وغيرها، تحمّس له الشعب وكلّوه بأخبار الفوز والظفر ، وشاد له أهل ثيبس هيكلًا وأقاموا له فيه نصبًا ، وهو بعدُ أمر مفاده أن لا يُمسّ بيته بسوء. (ص ١٩١) . ويقال إنه بعد أن مات، أخذوا الكرسي الذي كان يجلس عليه في موقف الإنشاد، ووضعوه بين أنصاب الآلهة: تخليدًا له، لتقديره فن هوميروس (ص ١١٣) .

يفرض حديث تعريب الإلياذة أن نخصّ اللغتين: اليونانية والعربية بكلمة ، حيث إنهما تتشابهان في النشأة ، من حيث تفرّع كلٍ منهما إلى فروع . لسان العرب في الجاهلية تفرّق إلى فروع وكل منها كان يقوم لغةً بنفسه، ويمتّع التفاهم به لدى غير أصحابه. (ص ١١١) ظل الحال هكذا ، حتى هذّب شعراء عكاظ من شتى القبائل لغاتهم كي يفهم عنهم ما يقولون. (ص ١١٢) وعكاظ بين نخلة والطائف في الحجاز، ولقریش في الحجاز منزله لا تعادلها منزلة: فهم سنّة الكعبة حيث كان الشعراء الوافدون من اليمن، بادية الشام، هضاب نجد، بُرق تهامة، وسائر أطراف البلاد العربية يتشبهون جهدهم بلغة قریش وقد قويت لغة قریش ، وانتشرت بين أكثر قبائل الحجاز ونجد ، وتفوّقت وسادت بنزول القرآن الكريم بها، فشاعت أكثر وأكثر في خطاب معظم القبائل شعراً ونثراً ، إن لم تكن بين كل القبائل جميعاً .

الرائد الأول لتعريب الإلياذة شعراً : هو الباحث والعالم والشاعر والأديب والمُعَرَّب والمترجم: سليمان البستاني ، الذي قام بهذا العمل المضني ، وعَرَّب الإلياذة في جزأين ، قدَّم لهما بمقدمة احتوت عدة عناصر ، هي : قيام البستاني بعقد مقارنات بين بعض أبيات الإلياذة والشعر العربي ، وهو الأمر الذي شجَّع على الاستضاءة ببعض مقولاتها في هذه العجالة، وجاء اهتمام الباحث هنا ، ليركِّز وبشدة ، على نقطة بحثية محدَّدة ، صَنَّف من خلالها المقولات الواردة في الإلياذة وفق منهجية علمية متوازنة ، في محاولة لإبراز عظمة العقل والفكر الإنساني عموماً : يونانياً كان أو عربياً أو غير ذلك : استشرافاً لتأكيد فكرة توارد الخواطر، وبالتالي تواصل الحضارات البشرية ، مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز : "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا". (من الآية رقم ١٣ ، في سورة الحجرات) .

بعد هذه التطوافة ، نجمل التراسلات بين الإلياذة والشعر العربي في عدة مجالات هي : الأساطير والغيبيات / الوطن والحكم والسلطة / الأخلاقيات والعلاقات الإنسانية / المعارك وما يرتبط بها من صور وتصوير.

أ (فيما يتعلق بالأساطير والغيبيات ، يقول هوميروس في افتتاح ملحمة: ربة الشعر عن أخيل بن فيلا أنشدنا واروي احتداماً وبيلاً (ص ٢٠٣)

(الاحتدام الويل : هو الغضب الشديد المشنوم) . بدأ هوميروس هنا باستنشاد إلهة الشعر والقريحة ، ويطلب منها المعونة لتبث فيه روح النظم

والإنشاد ، بل أكثر من ذلك، جعل هذه الإلاهة هي المنشدة والراوية لما دار من أحداث . يتعامل الشاعر معها كأنها صاحبة الفضل في الإبداع الشعري ، ويبقى دوره في أنه يملئ على الملأ من فيض روحها .
هوميروس يدور حول هذه الفكرة في سياق آخر ، حيث يقول : (ص ٣٠٢)

قَيْنَةُ الآنَ : أنشدني وقولي مَن سما في تلك السرى والخيول
مرة أخرى يستشدها على أنها قينة أو مغنية .

سليمان البستاني (مُعَرَّب الإلياذة) يمايز بين هذا الموقف ، وموقف الشاعر العربي منذ العصر الجاهلي ، والذي لم يكن يستحث إلا قريحته وفطرته الشعرية ، مستدلاً بأن امرأ القيس قد افتتح معلقته دون استنشاد أحد ، حيث قال مباشرة :

قفا نبك من نكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
وبالمثل فعل طرفة بن العبد حين قال في أول معلقته هو الآخر :
لخولة أطلال بئرقة ثمهد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
(هامشا ص ٢٠٣ ، ٢٠٤) ومع احترامنا لوجهة نظر البستاني في هذا الصدد ، فما نزال نرى التراسل ماثلاً بين الشعراء في العصر الجاهلي ، والإجراء الذي قنمه هوميروس . دليلنا إلى ذلك قول طرفة بن العبد :
إنني وإن كنت صغير السن وكان في العين نبؤ عني
فإن شيطاني أمير الجن يذهب بي في الشعر كل فن
وعلى هذا ، فالتراسل حادث في هذا المعتقد بين هوميروس والعرب ، وإن كان من فرق ، فهو "الإلاهة" لدى اليونان ، و"الشیطان أو أمير الجن" عند العرب مع تمايز آخر، هو المغالاة لدى العرب ربما أكثر من اليونان في هذا المعتقد أو ذلك الأمر الغيبي .

أمر غيبي آخر ، نستلهمه من شروح الإلياذة هذه المرة ، وهو اهتمام اليونان بتقديم القرابين لآلهتهم ، وارتباط ذلك بعدة مراسم في طريقة ذبحها وطهيها وأكلها بل وأكلها. (ص ٢٣٧) يقول هوميروس :
ظَلُّوا نهارهم يبعغون بالنغم الشَّادي تقبل ربُّ منهم انتفلا (أي تبرأ)
حتى إذا أبرزت وردِّي أنملها بنتُ الصباح وذاتُ الفجر منتجلا
(ظاهر)

عادوا لقومهم والريح مُسْنِفَةٌ لهم بفيض إله ، ذبحهم قبلا
وفي الشعر العربي، يقول الشاعر :
أبا وهب جزاك الله خيرا نحرناها ، فأطعمنا الثريدا
ويقول الحطيئة :

وقال ابنه لما رآه بحيرة أيا أبتِ ادبحني وقدّم له طُعْما
هذا الأمر لم يكن وفقاً على اليونان والعرب حسب ، حيث شاع ذلك لدى معظم شعوب العالم القديم : مصريين وبابليين وآشوريين وفينيقيين وفرس وهنود. وما دام التراسل متعقبا هنا بين اليونان والعرب ، فقد نتجوز بالإشارة إلى قصة عبد المطلب ، حين نذر إن رزقه الله بعشرة أبناء أن يذبح واحداً منهم . وكان هذا الفداء هو عبد الله (والد النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - وقد جاء في الحديث : أن الرسول (ص) قال : أنا ابن الذبيحين : يقصد أباه عبدالله بن عبد المطلب ، وإسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام . وتتمة القصة كما ترويها " سيرة ابن هشام : أن قوم عبد المطلب حين أرادوا أن يثوه عن عزمه ، ويصرفوه عن فكرته ، استضاءوا

برأي كاهنة كانت تتجَم بالغيب ، وقد أملاها شيطانها أن يفتدوا الابن بمائة من الإبل ، وقد تم عمل ذلك .

(لنا أن نذكّر هنا أن التضحية بإنسان تكون لله ، أما بغنم أو إبل فتُذبح للأصنام)

نقطة أخرى ، عن أصل فكرة الأرباب أو الآلهة لدى اليونان ، ومنازع المتعبّين لها. يقول هوميروس (ص ٢٧٩) :

طعامهم نالوا وزكّوا تقايماً لأربابهم : كلّ لمن كان يألّف

هنا يشير البستاني إلى أن اليونان كانوا يدينون لجميع الآلهة ، مع وجود ميل خاص لفئة أو فئات لربّ من أربابهم ، يعطونه اهتماماً أكثر في العبادة . يعقد البستاني مقارنة غريبة بعض الشيء بينهم وبين بعض النصارى في تشفّع بعضهم بقدّيس دون آخر في ظروف معينة ، رغم أنهم يخلصون في اعتقادهم بصلاح الجميع . ويستطرد البستاني إلى استكمال المقارنة بين اليونان والمسلمين هذه المرة ، بالإشارة إلى اختلاف المسلمين في الانتماء إلى طرائق ومذاهب مخصوصة ، مع إجماعهم غالباً على أن هذه الطرائق جميعها سوّية . إن جاز لنا قبول ذلك ، فإن أبرع ما يعبر عنه ، هو قول البوصيري :

وكلهم من رسول الله ملتَمَس غُرفاً من البحر أو رشفاً من الدّيم
فكرة التّدين لدى هوميروس أنه لجميع الآلهة ، ومع هذا تظلّ ثمة
أفضلية للبعض . وفي ذلك يقول الشاعر العربي :

أكرم بقوم رسول الله قائدهم إذا تفرقت الأهواء والشّيع

ويقول آخر :

إن كان في الناس سباقون بعدهم فكلّ سبق لأدنى سبقهم تبع

فكر وإبداع

من الغيبيات أيضاً : التطير أو التفاؤل والتشاؤم . يقول هوميروس (ص ٢٧٤) :

لنا سلفاً بالرأس أوماً معلناً بشائر نصرٍ قاصفاتٍ رعوها
إيماءة زَفَس كبير الآلهة اليونانية ، كانت تُنبئ ببشارات النصر ، حيث
كان اليونان إذا لمحوا شيئاً من إشارات " زَفَس " وقصفت الرعود ،
استبشروا بتحقيق أمنيّتهم . التفاؤل والتشاؤم من غرائز البشر في كل زمان
ومكان ، وقد عجزت الحضارة والتقدم عن استئصال شأفة مثل هذه
المعتقدات وإلى وقتنا هذا . لا لوم إذاً على جاهلية القوم إذا تفاعلوا أو
تشاءموا بما يترأى لهم من نجم ورعد وبرق وطائر وحيوان .

تراسل هذا الأمر عند العرب واضح وملموس ، وفي ذلك يقول زهير بن
أبي سلمي

تداركتما عبساً وذيبيان بعدما تقانوا ، ودقوا بينهم عطر منشم
ويحدثنا التاريخ أنهم إذا كانوا حول مريض وسمعوا داعياً يقول : ياسالم
، استبشروا بسلامة مريضهم . وإذا كان أحدهم طالباً لحاجة وسمعوا قائلاً
يقول يا غانم أو ياظافر ، أيقن بالفوز والظفر . ولا ننسى ما كانوا يتلاعبون
به من ألفاظ : تيمناً وإشفاقاً ، حيث أسموا الملسوع " سليماً " ، والتهلكة أو
البيداء " مفازة " ، والموت " أبا يحيى " ، وهكذا . بل أكثر من ذلك ، اتخذ
العرب من الأصوات والحركات دلائل ونبوءات ، فقالوا إن اختلاج العين
يبشر بقاء الحبيب ، ومنه قولهم :

ظَلَّت تبشرني عيني إذا اختلجت بأن أراك ، وقد كنا على حذرٍ

وقالوا إن اليد اليمنى إذا نبضت ، دلّت على شيء يُدفع إليها فتأخذه ، على حين أن اليد اليسرى إذا نبضت ، دلّت على شيء يؤخذ من صاحبها . وإذا سُمع طنين في الأذنين ، كان في ذلك إشارة إلى قرب بلوغ نبأ من الأنباء ، وإذا كان الطنين في الأذن اليمنى ، دلّ ذلك على نائمة ، وإذا كان باليسرى ، دلّ على مدح وثناء مرتقب . وهذا من المزاعم الباقية ، وفيها يقول أهل العراق : الأذن اليمين عدوّ مبین ، والأذن اليسار صديق سارّ .

كان بعضهم يتطّيرون بالإبل ، ومنه قولهم :

زعموا بأن مطيهم سبب النوى والمؤذات بفرقة الأحباب

وأكثر من هذا ، النوم في أوقات معينة ، وآثاره اللوخيمة على الإنسان . يقول الشاعر العربي :

ألا إن نومات الضحى تورث الفتى خبالاً، ونومات العصير جنونُ

النوم وقت الضحى يؤدي صحياً إلى الخبال والتخبط ، كما أن النوم وقت العصر قد يورث الشخص الجنون . يتراسل ذلك مع بعض المعتقدات السيارة في بعض القرى المصرية ربما حتى الآن ، ترددها العجائز للصغار . وفي هذه الحالة ، يكون النظر هنا بعض المرويّات العربية المأثورة ، ومنها :

تفاء لوا بالخير تجدوه . وقد ورد في الحديث الشريف : " توقع خيراً تلق خيراً ، وتوقع شراً تلق شراً " ، هذا إلى أن الطيرة محرمة بحديث : " لا طيرة في الإسلام " .

(ص ٢٧٥، ٢٧٦)

وعن العرافة والكهانة ، يقول هوميروس (٢١٢) :

فلما انتهى آخيل، هبّ ابنُ سَطرٍ أجلُ ذوي العرفان كلّخاسُ وانبرى

كلخاس بن تَسطر هذا، كان عرّافاً ونوخذة أي راجماً بالغيب، ومرشداً بحريا لقومه .

ويقول أيضاً على نسان آخيل في حديثه مع أمه بعد أولى هزائمه ،
والرأي هنا لأكثر من كاهن (ص ٢٣٢ ، ٢٣٣) :

قال والنفسُ صَعَدَتْ زَفَرَاتٍ : ليس تُجْدِي لما علمتِ الإعادة
وَزَعُ الكَسْبُ ها هنا وخَرِيساً نال أَتْرِيذُ غَادَةً أَيَّ غَادَةً
فَأَتَانَا خَرِيسُ كَاهِنُ فَيَبُوسٌ مَثِيرُ السَّهَامِ يُلْقِي المَقَادَةَ

• • • • •

فَقَّهَ الْأُمَرَاءَ كَاهِنَ ذُو سَدَادٍ . وَاحْتِدَامُ الْإِلَاحِ أَدَّى مَفَادَهُ
وَكَمَا نَعْلَمُ ، فَإِنَّ الْعِرَافَةَ وَالْكَهَانَةَ وَتَفْسِيرَ الْأَحْلَامِ مِمَّا رَسَّاتُ
وَاعْتِقَادَاتُ جَرَى عَلَيْهَا الْقَدَمَاءُ فِي كُلِّ الْمَلَلِ وَالنَحْلِ ، وَلَهَا أُمُتَةٌ فِي التَّوْرَةِ
فِي الْعَهْدِ الْقَدِيمِ ، كَمَا كَانَتْ شَائِعَةً لَدَى الْإِغْرِيقِ أَيْضاً ، وَلَاشَكَّ أَنَّهُمْ أَخَذُوا
عَادَاتِهِمْ فِيهَا عَنِ الْمَلَلِ السَّابِقَةِ عَنْهُمْ فِي الْمَدْنِيَّةِ ، مِثْلَهُمْ فِي ذَلِكَ مِثْلُ
الْمَصْرِيِّينَ الْقَدَمَاءُ وَالْأَشُورِيِّينَ وَالْفِينِيقِيِّينَ ، كَمَا أَنَّ الْيُونَانَ أَلَمُوا بِمَا جَاءَ فِي
التَّوْرَةِ عَنْ عَصِيَانِ بَعْضِ الْمَلَائِكَةِ ، بِمَا انْعَكَسَ هُنَا عَلَى تَوَجُّهِ الْكَاهِنِينَ فِي
وُجُودِ رَأْيٍ مُخَالَفٍ ، وَمَعَ هَذَا يَدِينُ لَهُ النَّاسُ .

وبالمثل، شاعت أيضاً في جاهلية العرب، وأخبار شق وسطح معروفة. كان العراف عند العرب ساحراً ومُنْبئاً بالغيب وطبيباً أي إن له وظائف متعددة (ص ٢٣٤). وذلك عكس عرّاف اليونان: ينبئ بالغيب ويهدي الناس إلى الطريق والاتجاهات في البحر (نوخذه) وهنا الفرق. يقول عروة بن حزام :

جعلت لعرّاف "اليمامة" حكمه وعرّاف "تجذّر" إن هما شفياني
ويقول آخر :

رجموا بالغيب كيما يعلموا من شؤون القوم ما لا يُعلم
ب (من معاور التراسل أيضاً ، عدا الأساطير والغيبيات : النظرة
إلى الوطن والحكم والسلطة .

يقول هوميروس على لسان هكتور (ص ٦٧٩) :
وليس للمرء من فالٍ يدين له خيرٌ من الذؤنّ عن أوطانٍ نشأتِهِ
ويقول الشاعر العربي القديم :
فأقسمتُ بالبيت الذي طاف حوله رجالٌ بنوه من قريشٍ وجزمهم
ويقول أحمد شوقي في العصر الحديث :

وللأوطان في دم كل حُرٍّ يدٌ سلّفت ، ودينٌ مُستحقُّ
وبدلاً من التصوّر العربي في أن " حب الوطن من الإيمان " ، يجري
اليونان على عاداتهم في الفأل ، وهو هذه المرة " فالٌ " يستوجب التدين . لقد
كانوا يعتقدون - إلى جانب الفأل - أن ثمة عيناً للعناية ، هي التي ترعى
الأشياء وتحرسها ، وكان يعدّ وجودها رمزاً للبقاء ، في حين أن غيابها كان
يعدّ رمزاً للفناء . يقول هوميروس (ص ٦٦٧) :

فلا يقوم بناءٌ لا تحيطُ به عينُ العنايةِ إلا شابه الخللُ
هذا أشبه شيء بما جاء في مزامير دواود: إن لم يبنِ الرَّبُّ البيت ، فباطلاً
يتعب البناؤون، وإن لم يحرس الرَّبُّ المدينة فباطلاً يسهر الحراس . ويقرب
من بيت هوميروس : قول الشاعر العربي :

والبيتُ لا يُبنى إلا على عمَدٍ ولا عمادٌ إذا لم تُرسَ أوتادُ
ويقول الآخر :

كذلك من لم يشكر الله لم تزل معالمه من بعدٍ ساحته تغفو (هامش ٢٦٤)

مثال آخر للتراسل بين اليونان والعرب في مسألة الحكم والسلطة .

يقول هوميروس:

كان الملك يشاور أصحابه وأتباعه في شتى الأمور المصيرية ، بل إن بعض الملوك اليونان لم يأبوا أن يخاطبهم الجند معترضين على بعض الأمور التي تواجههم ، وكان الملوك يستمعون إليهم في حلم وصبر جميل . لدى العرب والمسلمين ، كانت هذه قاعدة عامة التزم بها الخلفاء الراشدون . نسأئس هنا ببعض مواقفهم ومقولاتهم : موقف أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - بعد أن بويع وخطب الناس قائلاً: إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأيدوني ، ولو أخطأت فقوموني .

وبالمثل فعل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حيث قال : "أيها الناس! من رأى منكم فيّ عوجاً فليقومه" ولم يغضبه أن يسمع بعد ذلك من عامتهم : "والله لو رأينا فيك عوجاً لقومناه بسيوفنا. وهنا قال عمر (ض) : الحمد لله الذي أراني من يقوم عوج عمر بسيفه. (ص ٢٦٤) .

عند اليونان ، اعتاد الحاكم في حالة نشوب حرب ، أن يتولى - إلى جانب سلطته السياسية - الرئاسة الدينية أيضاً ، ونلمح تطبيق ذلك في الإلياذة ، حيث تولى أغاممنون - زعيم زعماء اليونان - السلطة والجيش والأمور الدينية أيضاً . كانت مهمة الحاكم اليوناني مزدوجة ، فهو سياسي ومحارب . يتراسل هذا مع الفارق : ما نجده لدى المسلمين في عصر صدر الإسلام ، حيث تولى الخليفة الخلافة كأمر سياسي ، والإمامة كأمر ديني ، وخاصة في العبادات . أما بالنسبة للجيش ، فقد كان الخليفة يؤمّر على الجند واحداً منهم ، يكون القائد أو رئيس الجيش ، وبرغم أن الخليفة المسلم لم يكن

يخرج على رأس جيشه ، فقد كان يُنظر إليه بأنه يجمع بين خبرة السياسة وخبرة الحرب ، تماماً على النحو الذي تتراسل فيه أبيات هوميروس في الإلياذة مع الشعر العربي ، كما يتضح من المثال التالي :

يقول هوميروس في وصف أجاممنون ، وهو وصف يجمع بين الخبرة السياسية ، والخبرة الحربية

ملك "بأحوال السياسة عارف عزوم بصمَاء المعامع جبار (ص ٣٢٧)
يقال إن الاسكندر المقدوني المعروف بذي القرنين كان يردد هذا البيت كثيراً ، ويعتبره أبلغ بيت في منظومات هوميروس كلها ، ويتخذ منهاجاً وشعاراً.

يتراسل ذلك مع ما كان لدى العرب والمسلمين ، حيث كان الخلفاء سياسيين ولديهم مسؤوليات دينية ، بالطبع إلى جانب الخبرة العسكرية ، التي أظهروها في تكتليفاتهم القادة في المعارك ، حيث كانوا يؤمرون القائد الكفء على الجيش ، وأحياناً كانوا يباشرون المعارك بأنفسهم . يقول أبو تمام:

ملك له في كل يوم كربة إقدام غرّ واعتزام مجرب

وعن الحكم والسلطة أيضاً ، يقول هوميروس :

لا يستقيم الأمر إلا إن يكن فرد يُخول صولجان الصولة (ص ٢٦٤)

ويقول الشاعر العربي :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

أهمية القيادة ورئاسة الدولة ، بل وحاجة الدولة الدائمة إلى القوة- كل هذه أمور التفت إليها اليونان قديماً ، وفي ذلك يقول هوميروس :

فلترضخن إذا لمن زقس ارتضى للملك والأحكام بين الأمة

فكذا بفصل القول خاطبهم ، وعاد الجيش للشورى بأعلى ضجة

(ص ٢٦٥)

يكفينا في أمر الشورى ذلك الإخبار الإلهي في القرآن الكريم : " وأمرهم شورى بينهم"

وفي رؤية المرعوس للرئيس في حالات خاصة ، يقول هوميروس :
وليس لمرءٍ يُغضب الملك حيلةً
وإن كظم السلطان غيظاً وأضمرأ
يتراسل ذلك مع ما قاله ابن الوردي عن أهمية الحكمة في مداراة السلاطين
والأمراء والزعماء والملوك والرؤساء :

جانب السلطان واحذر بطشه
لا تعاند من إذا قال فعل (ص ٢١٣)
ومن قبله قال النابغة الذبباني :

نُبئتُ أن أبا قابوسٍ أوعدني ولا فرارَ على زأرٍ من الأسد
(ج) إلى جانب الأساطير والغيبيات ، والحكم والسلطة والوطن ، نجد
محوراً ثالثاً هو : محور الأخلاقيات والعلاقات الإنسانية :

تظهر هذه العلاقات بدايةً في أهمية الأخ واحترامه ، يقول
هوميروس :

وجاء منيلا القرم من غير دعوة لما بأخيه من عنا النفس يعرف
منيلا القرم هو منيلاوس ، وهو أخو أغاممنون وزوج هيلانة التي من
أجلها ثارت الحرب . (ص ٢٨٠) .

هنا تساؤل من شراح الإلياذة : كيف يحضر منيلاوس مأدبة لم يُدع إليها، وعقبوا على ذلك بأن قدومه كان نوعاً من التطفل . لقد فاتهم أن قدومه كان ناشئاً عن أهمية الولاء للأخ، والتاريخ يحدثنا عن أن بلاد المشرق ومنها الجزيرة العربية كانت تعرف أهمية الأخ، وخاصة حين يكون في حالة ضيق . ، وورد عن نساء العرب منذ العصر الجاهلي قولهم : "الزوج

موجود ، والابن مولود ، أما الأخ فلا يعود" ، إشارة إلى أنه لا يقوم مقام الأخ مخلوق آخر ، وذلك لما للأخ عادة من دالة وصلة ، لا تقل عن إعزاز الأب لولده. (ص ٢٩٤) .

يقول الشاعر العربي :

أخاك أخاك إن من لا أخاله كساع إلى الهيجا بغير سلاح

وقال آخر:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في لنا نحات على ما قال برهانا
وفي جانب العلاقات الإنسانية أيضاً لدى اليونان ، تبرز أهمية الرجل الحكيم :

يخاطب أوديس (وهو أحد الأبطال) : نسطور (الحكيم) قائلاً :

بما بك من حكمة عشرة
لذلت إليون تحت ضروبي

يقول: إنه لو أتاح لي الآلهة أن يكون في جيشي عشرة حكماء مثلك ، لكنت سيطرت على إليون أو طروادة. (ص ٢٧٧) .

النقطة هنا أن عشرة حكماء يعادلون جيشاً أو فيلقاً جراراً ، وفي ذلك تمجيد لأصالة الرأي. وهذا يتمشى مع ما قاله أبو الطيب المتنبي :

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

(ورد أيضاً : ولها المحل الثاني)

ومع ذلك ، فإن هذا الملمح يغيّره موقف أبي تمام في تفضيل القوة على الرأي في قوله:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب (ص

(٢٧٨)

وإن كان المقصود هنا رأي المنجمين ، ونيس الرأي على إطلاقه .

هذا ، وبظل الشيخ في نظر اليونان قيمة إنسانية كبيرة ، لما يحوزه من رأي وحكمة وتجارب وخبرات ، يشير هوميروس إلى أبناء الملك فريام قائلاً :

فبنوه لا يتقون زماماً والتراخي طبيعة الفتيان
ربما ينقضون ميثاق زفس إنما الشيخ لا يُخيب الأمان
ما أكثر ما قال العرب في العصر الجاهلي وعصر المولدين بهذا المعنى، أي
إيثار الحكمة عن الشيوخ، والطيش عن الشبان، ومن أمثلة ذلك ، ما قاله
النابغة النيباني:

على حين عاتبت المشيب على الصبا فقلت : ألمّا تصنح والشيب وازع؟
وقال المسيب بن علس:

فرايت أن الحلم مجتنب الصبا وصحوت بعد تشوق ورواع
وقال الغنبي:

قالت عهدتك مجنوناً فقلت لها إن الشباب جنون برؤه الكبير
ويقول السيوطي:

أما الشباب فظلمة للمهتدي وبه ضلال الجاهل المتمرد (ص ٣٢١)
وفي جانب الخلال والصفات المرغوبة ، يأتي التغني بعزة النفس
والكبرياء وليس الغرور أو التكبر .

يقول هوميروس: على لسان أخيل ، مخاطباً أغا ممنون ويهده بالرحيل
والتخلي عنه :

سأقلع راجعاً ولدي خير أعاود موطني وأحل داري
وأشهد لست تلقى بعد خذلي كنوز المال في جرف البحار

وفي مثل هذا المعنى يقول عنتره:

سينكرني قومي إذا الخيل أصبحت تجول بها الفرسان بين المضارب

ويقول أبو فراس الحمداني :

سينكرني قومي (إذا الخيل أقبلت) وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدرُ

(وردت أيضاً : إذا جد جدُّهم)

ويقول:

ستكرني المعامع كلَّ وقتٍ على طول الحياة إلى المماتِ (ص ٢١٨)

هذا ، وينبثق من الكبرياء وعزة النفس ، نوع من الإباء بشقيّه : السلبي والمرغوب. ويتمثل السلبي في الاستغناء عن الآخر مثال على ذلك ، مايقول قاله أغاممنون لأخيل:

لئن تغضب وإن تذهب سواء فليس بمز عجي هذا وذاكا

يبين له عدم اكترائه به ، سواء أقام غاضباً ، أو رحل ناقماً ، فالموقفان

سواء . ولم يعد بهم . يقول فيلسوف المعرفة :

أقلُّ صدودي أنني لك مُبغضٌ وأيسرُ هجري أنني عنك راحلُ

(ص ٢١٩)

أما الوجه الآخر للإباء ، فهو الإيجابي والمرغوب ، حيث يمثل الطموح بعينه ، وهو الذي نجده لدى أخيل حين خيّر ما بين عيشٍ يطول مع رقادٍ وخمودٍ ذكرٍ، وبين هلاكٍ في عنفوان الصبا ويخلد ذكره ، اختار أخيل قصر الحياة مع المجد (ص ٢٣١) ، وهذا يذكرنا بقول امرئ القيس:

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفاني ، ولم أطلب قليل من المال

ولكنما أسعى لمجدٍ مؤثّلٍ وقد يدرك المجد المؤثّل أمثالي

ويقول عنتره العبسي :

لا تسقني كأس الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

كأسُ الحياة بذلةٍ كجهنمٍ وجهنمٌ بالعزُّ أطيبُ منزلٍ
نتيجةٌ لهذا التصور ، تجيء معاملة الكرام مختلفة عن معاملة اللئام :
وهذا أوديس يتجول بين الصفوف : يكلم الكرام بلطف ، ويخاطب الرعا
بقرع العصا
على شاكلة مبدأ "الجزاء من جنس العمل " . يقول هوميروس على لسان
أوديس :

من كان مولى زفسَ ليس يُذلهُ بل صانه بكرامةٍ ومودةٍ
وإلى معاملة الناس على قدر أفعالهم ، يقول أيضاً حين يلاحظ الحاكم
أعوجاجاً :

وإذا رأى أحد الرعا مصوّتاً بالصولجان عليه ، مال بضربةٍ
نلمح هنا طيف المتنبي في ترأسه مع هذا المعنى على إطلاقه مع كل الناس
وليس مع الحاكم فقط : يقول أبو الطيّب:
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم
تمرّداً

ووضعُ الندى في موضع السيف بالعلّا مُضراً ، كوضع السيف في موضع
الندى (ص ٢٦٣)

يرتبط بالحديث عن العلاقات الإنسانية ، بعض غرائز أو نوازع
النفس ، والتي قد تظهر أحياناً في البكاء من أجل إحداث تطهير من نوع ما
، وهنا يأتي بكاء الأبطال والشعراء :

بكاء الإنسان ليس دائماً ضعفاً ، ولكنه غريزة بشرية ، وهو لا يرتبط بجاء
أو صولجان السلطان قد يبكي بكاء رجل الشارع العادي ، وهاهو أحد أبطال
اليونان المرموقين يبكي :

فغادر الربع أخيل وسار إلى الجُرفِ الخَلِيّ يُفِيضُ الدمعَ كالنَّيْمِ
(الجُرفِ الخَلِيّ : شاطئ البحر)

وإذا كان البكاء سنةً بشرية وإنسانية ، فإنه أيضاً طريقةً شعرية ، وعليه
درج كل الشعراء ، وغلبة البكاء فطرة تعجز عن مقاومتها بسالة الأبطال
والشجعان.

يقول غنّرة :

يا عبل لولا الخيال يطرقني قضيت ليلي بالنّوح والسهر
امرو القيس (افتتح معلقته بالبكاء)
قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدّخول فحوّل
وقوله :

وإن شفائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول ؟
الدمع ملطّف للأحزان ، ومخفّف لحرارة الأشجان ، كقول أبي تمام :
واقعا بالخدود والبُرء منه واقِع بالقلوب والأكبَادِ
ويقول ذو الرّمة :

لعل اتحدار الدمع يعقب راحة من الوجد ، أو يشفي نجيّ البلابل
ومن قبله يقول الفرزدق :

فقلتُ لها إن البكاء لراحة به يشفي من ظنٍّ أن لا تلاقيا
وبكاء الخنساء على أخيها صخر ، ومشاركة الآخرين لها ، أراح نفسها
المعذبة ، وحماها من الهلاك ، تقول :

فلولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

بعض الشعراء جعل البكاء محجة يُتسابق إليها، ومحمدة يُرغب فيها ، كقولهم
(ص ٢٣٠)

ولو قيل مبكاهها ، بكيتُ صبايةً بسُعدى ، شفيتُ النفسَ قبلَ التَّئمِ
ولكن بكيتُ قبلي ، فهيجَ لي البكا بكاهها ، فقلتُ : الفضلُ للمتَّئمِ
ذكر الشعراء العرب البكاء في السرور أيضاً، كقول صفى الدين
الحلي:

طفح السرور عليّ حتى أنه من عظم ما قد سرّني أبكاني (ص ٢٣١)
البكاء لا يقدح ولا يقلل من درجة عزة النفس لدى الإنسان .

د) بعد هذا ، نأتي إلى المحور الأخير ، وهو محور المعارك وشعر
الحرب ، وما يرتبط بها من أسلاب وسبايا أو ينشأ عنها من تراسل في
المضامين الشعرية من ناحية ، بل وكذلك ، في الصور والتصور والتصوير
أيضاً ، يقول هوميروس :

لأذيس أنفذن منحدراتِ وقرى الطير والكلاب القيولا

(أذيس : إله الجحيم) ، (القيول : الزعماء والأبطال)

أي إن الطير والكلاب قد نهشت جثث القتلى من الزعماء والأبطال .
أشعار العرب مشحونة بمثل هذا المعنى (أي عبث الطير والوحش بجثث
القتلى ،

يقول عنتره : (ص ٢٠٥)

نقلبه وحشُ الفلا ، وتتوشهُ من الجوّ أسرابُ النسورِ القشاعم

وقال:

تحوم عليه عُقبان المنايا وتحجل حوله غربانُ بينِ

وقال:

وبالسيف قد خلفت في القفر منهم عظاماً ولحماً للنسور الكواسر

وقال:

كم فارس غادرت يأكل لحمه ضاري الذئب وكاسرات الأنسر

نجد لدى العرب وحش الفلا ، وضاري الذئب، إلى جانب غربان الشوم وكاسرات النسور، وذلك في مقابل الكلاب والطيور بشكل عام لدى اليونان ، ويلاحظ أن هوميروس وضع الكلاب موضع الوحوش هنا لسببين :

السبب الأول ، هو قصد المبالغة فيما نالهم من الهوان حيث تنهشهم الكلاب العادية إمعاناً في الإيلام والإساءة إلى الأعداء ، وكأن المنهوش منهم بالكلب يكون وضع القدر. والسبب الثاني ، هو أن اختيار الكلاب هنا ، إنما جاء لمسايرة واقع ميدان المعركة حيث دار القتال في اليونان حول بلدة أهلة بالسكان ، ولم يكن للوحوش من سبيل إلى بلوغ القتلى، خاصة أن الجنود المنتصرين عليهم كانوا يحدقون بهم من كل جانب ، الأمر مختلف بالنسبة للصحراء العربية ، والتي كانت مرتعاً لهذه الأنواع من الوحوش والكواسر وما إليها . (٢٠٥)

في السنة العاشرة لحصار طروادة ، تفشى وباء في معسكر اليونان سرى أثره بين الناس والحيوانات على السواء: الناس، لشدة الحر وفطر العناء، والحيوانات لفساد العلف والأطعمة وقتلتها. صاغ هوميروس ذلك في قالب جميل ، مشيراً أيضاً إلى أدوات الحرب لدى اليونان : القوس والنبال . يقول هوميروس :

فرغ الشيخ فاستجاب أفلو ن بأعلى الألومب وانقضّ حالا

حاملاً وهو مزْمَهْرٌ على كتفيه قوساً وجعبة ونبالا

حانقاً كلما خطرت نبتة لعل عليه كالليل بالهول مالا

ورمى الفلّك من بعيد بسهم من لجين فزلزلت زلزالا
ضرب الغُضفَ والبغالَ فألقى شراً سهم ، فجندل الأبطالاً
فتوالت نيرانُ موتاهمَ إثرَ وباءٍ بالفتك يسعاً توألى
(الشيخ : الكاهن . أقولون : إله الشمس ، وقد يلقب برشاق النبال ،
أو الزّجاج)

(مُزْمَهَر : مُحْتِمٍ غِيظاً) / (الغُضف : الكلاب)
هنا ، أقولون أو إله الشمس أخذ أهبطه في المعركة فحمل على كتفيه قوساً
وجعبة ونبالاً، وكلما تحرك ارتجت النبال عليه كانبساط الليل الذي يلفّ
الكون بالأهوال والفرع إلى جانب رميه سهاماً يزلزل بها الأرض ويصرع
بها الأبطال . (٢١٠)
ينكرنا هذا بصورة النبال والنصال لدى أبي الطيب المتنبي ، حيث
قال:

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فوادي في غشاء من نبالٍ
فصرتُ إذا أصابتني سهامٌ تكسرت النصالُ على النصالِ
(معنى الشطرة الثانية في البيت الأول : ارتجاج النبال بعضها على بعض)
لقد اعتاد هوميروس أن يشبّه رجاله بصفة يمتازون بها، فهو يصف كلاً من
أخيل وهكطور باللباس ، وأوديس بالحكمة ، ، وفاريس بجماله ، وهكذا
وبالمثل ، جرى بعض شعراء العرب في التشبيه بالملائكة والأنبياء .
قال ابن هاتئ

وكأنما أنت النبيُّ محمدٌ وكأنما أنصارك الأنصارُ (٢١٦)
وقال المتنبي:

يا أيها الملك المصفى جوهرأ من ذات ذي الملكوت أسمى من سما
(ص ٢١٦)

ويقول هوميروس :

يا مليكاً بنشوة الراح مُثَقِّلَ يا لحاظَ الكلابِ يا قلبَ إيلٍ

(الإيل : يشبهون به قلب الجبان ، كناية عن البذاءة والوضاعة)

لدى العرب وعلى امتداد صحرائهم توجد ظباء ونعام ، إلى جانب الحيوانات
المفترسة

وقد استخدمها الشاعر العربي ، لبيان المفارقة في شخصية إنسان دعي :

أسدٌ عليّ ، وفي الحروب نعامةً فتخاءُ تفزع من صفير الصافرِ

وقول أبي تمام:

إن يعدُّ من حرّها عدوَّ الظليم فقد أوسعت جاحمها من كثرة الحطب

(الظليم: فرخ النعامة) (ص ٢٢٢) .

يقول هوميروس :

رمقته بطرف عين مهاة ثم قالت: وما الذي ترويه ؟!

تشبيه تردد كثيراً في الشعر العربي، وفي تراسل عربيّ ، يقول على بن

أبي الجهم :

عيونُ المها بين الرُّصافة والجِسرِ جليئن الهوى من حيث أدري ولا أدري

ويقول هوميروس ارتجاج السهول تحت أقدام جند الإغريق (ص ٢٤٣) :

وكان السهول طارت شراراً بمسير الإغريق فوق السهول

رجّت الأرض تحت دفع خطاهم رجّ آريم يوم هول مهول

عندما " زفس " بالصواعق يرمي غاضباً، قبر " تيفس " المقتول

يتراسل ذلك مع ما قاله عنتر بن شداد العبسي في تصوير إحدى معاركه:
رايات تخفق، غبار كالبحر ، سيوف لامعة في غمام مُرْعَب ، والأهم في
التراسل : حوافر الخيل تدق الصفا وكأنها صواعق نارية :

وترى بها الرايات تخفق والقنا وترى العجاج كمثل بحر مُزْبِد
وبوارق البيض الرقاق لوامع في عارضٍ مثل الغمام المُرْعَد
وحوافر الخيل العتاق على الصفا مثل الصواعق في قفار الفقد
لم ينس هوميروس الإشارة إلى العذ والإحصاء لأمر كثيرة :
(ص ٢٨٨) :

لست أحصي إذا سوى عدد الفلـك وكل القواد بالحرب عدا
يعدّد هوميروس بعد هذا البيت جنود جيوش الإغريق وزعماءهم وبلادهم
وسفنهم، كما يسرد عدداً من مميزات البلاد من جبال ووديان ونجود ورياض
وغابات، إلى جانب نسب كثير من القواد وأحسابهم وصفاتهم ، وأيضاً يورد
عدداً من أساطيرهم . ويشير معرب الإلياذة إلى أن ما قام به هوميروس هنا
أمر جليل لم يقدّم بمثله أحد قبله ولا أحد بعده. (صفحات ٢٨٨ - ٣٠٢) .
وبالمثل ، جاء العدد والعديد لدى العرب في معرض فخر ولكن فقط كإشارة
إلى حجم القبيلة ، حيث قال أحد الشعراء:

تَعِيرُنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فقلت لها : إن الكرام قليل

ولكن مع هذا ، يكثر ذكر الجحفل ، والعزمَم : وصقن الجيش الزاخر
بالأعداد والعتاد. والأهم أن البستاني بعد أن عَرَب الأبيات الشعرية الخاصة
بهذا الغرض، عَقَّب على ذلك بالكشف عن عجز البشر مهما أوتوا من

الحكمة والقوة والعدد والعديد، عن إتيان عظام الأمور مالم تبذل لهم العناية عونها.

ولعل هذه الملاحظة والمنبقة من استيحاء المقولات الشعرية لهوميروس ، إنما تجيء لتتراسل مع ما قاله الإمام علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، في قوله :

إلهي لئن خيبتني أو طردتني فما حيلتي يا رب أم كيف أصنع ؟!

إلهي لئن خيبتني أو طردتني فمن ذا الذي أرجو، ومن أتشفع ؟!

نضيف هنا أن شيئاً قد مائل ما قدمه هوميروس، وذلك على يد ابن الأثير ، في كتابه "الكامل في التاريخ" ، عن يوم الفجار الثاني، حيث يذكر ما حدث على أيدي كل من قيس وتقيف وقريش وكنانة والأحباش وأسد بن خزيمة ، كما حدّد القواد الذين ترأس كل منهم على بطن من بطون العرب مثل: بني هاشم، بني أمية، بني عبد الله، بني أسد، وما كان على الأحباش ، مثل بني الحارث من كنانة ، وبني بكر، ثم أتى على تعداد قبائل قيس ورؤسائها كما فعل بذكر القرشيين. (ص ٢٢٨ وما بعدها)

نقطة أخرى للتراسل في المعارك : لقد كان اليونان يفاخرون بإحراز السبايا والأسلاب والأسرى ، لأنها تدلّ على بسالة مُحَرِّزِهَا .

يقول هوميروس (ص ٢١٤) :

أودّ زوال السُخْط عنهم وإنما أرومُ جزاء أرْضِيهِ فأصبراً

فيبدو لدى الإغريق أنني لم أكن بلا سَلْبٍ كي لا أهان وأصغراً

وبالمثل ، كان العرب يفاخرون بالأسرى والخيول التي يُرمى عنها الفرسان في ساحة القتال - إحراز ذلك كان محطّ الفخار في جاهلية العرب وما تلاها، وربما فاحروا أيضاً بإحراز السبايا ، كقول الشاعر(ص ٢١٥) :

وعادوا بالغنائم حافلاتٍ وعدنا بالأساري والسبايا

هذا، مع أن العرب نادراً ما كانوا يحرصون على حفظ أية مكاسب أخرى في الحروب ، بل كان يعدّ الإبقاء عليها وصمة عار، يقول عنتره :
 إنا إذا حمي الوغى نرمي القنا ونعفّ عند تقاسم الأنفال
 ويقول أبو تمام:

إن الأسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب
 تظلّ الصور والتصوّر والتصوير من الأمور البارزة ، وبخاصة في
 المعارك وشعر الحرب . يصوّر هوميروس احتدام المعارك الدائرة بين
 اليونان والطوراد قائلاً :

ومن كلا الجحفلين الرمي منطلق على الرؤوس بغيث بالنبال طما
 كصيب النّج تنهال الغيوم به والنوء هبّ فتهمي تحت هبّته (٦٧٤)
 البيت الأول ، قد يتراسل مع تشبيه معقر بن حمار البارقي الرؤوس
 المضروبة عند النقاء الجيشين بالحدج النقيف وهو الحنظل المشقوق، بقوله :
 كأن جماجم الأبطال لما تلاقينا ضحى حدج نقيف
 البيت الثاني يتراسل مع تشبيه النبال المتطايرة بالنّج المتناثر، ومثله قول
 أبي العيال الهذلي ، إذ شبهها بالسنبيل:

فترى النبال تغير في أقطارها شمساً كأن نصالهن السنبيل
 اختلفت العناصر ، ولكن النفس ممتد .
 وأحسن منه قول عنتره العبسي إذ ذكر السيوف والسهام والدروع وشبه
 السهام بالجراد حين قال:

يدعون عنتر والسيوف كأنها لمع البوارق في السحاب المظلم
 يدعون عنتر والسهام كأنها طش الجراد على مشارع حوم

يدعون عنتر والدروع كأنها حدق الضفادع في غديرٍ دنجَم
يقول هوميروس

فلست بالقزَم يأتي موقفاً حرجاً حتى ولو جُملةً أجنادُنَا نكبوا
وشبيه به قول عنتره :

وأما القائلون قتلَ حربٍ فذلك مصرعُ البطلِ الجليلِ
ويقول هوميروس أيضاً :

يمشي الهوينَا مثل جأبٍ دخلا زرعاً من الحنطة يبغي أكلا
(الجأب : الحمار) (ص ٦٥٢)

انتقد هوميروس على هذا التشبيه، وقد غفل النقاد عن أنه كان يتكلم
بلسان قوم لم يكن الحمار مُمتَناً في عرفهم. ويعلق البستاني بقوله : ولا شك
أن هذا الامتحان حديث العهد؟ ونقول كيف ذلك وغباء الحمار وارد بالقرآن
الكريم بما كان الناس تعارفوا عليه "كمثل الحمار يحمل أسفارا" ١٢
ومع ذلك فهناك إشارات تاريخية إلى أن العرب لم يأنفوا من أن
يلقبوا الخليفة مروان الأموي ، بمروان الحمار ، إعظاماً لبأسه وصبره على
المكاره والشدائد.

وفي التوراة أن يعقوب لما بارك أبناءه، لقب ابنه إيساكر بالحمار
الضخم.

ويستطرد هوميروس فيصف التروس :

مُدَّت يَلامقُهُم حصناً يذود به يرمي العُدَاةَ الألى آلوا بِخَذْلَتِهِ

(اليلامق : التروس)

وأبلغ من ذلك ما قاله لبيد ، في جعل المعازل ، من الرماح والسيوف ،
وذلك في قوله :

معاقلنا التي نأوي إليها بناتُ الأعوجية والسيوفُ

(الأعوجية : الرماح)

وقد جمع ربيعة بن مقروم المعنيين بقوله:

وثغر مخوف أقمنا به يهاب به غيرنا أن يقيما

جعلنا السيوف به والرماح معاقلنا والحديد النظيم

يقول هوميروس (ص ٦٥١) :

والناس والكلاب في الأسمار تحرس حول غنة الأبقار

(الغنة : حظيرة المواشي)

تسهر كل الليل كي لا يرتعا بشحمها ولحمها ويرجعا

وفي هذا السياق ، نرى أن امرأ القيس قد أحسن أكثر في وصف اللحم

والشحم:

فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهذاب الدمقس المقتل

ويقول هوميروس (ص ٦٨٤) :

فلا يسوغ لنا إلا التربص في صدر السرى حيث نلنا منتهى الشرف

هذا المعنى كثير الورود في حماسيات العرب، وهو مكرر كثيراً في شعر

عنترة:

إذ لا أبادر في المضيق فوارسي حتى أوكل بالرعيل الأول

وقوله :

وأكر فيهم في لهيب شعاعها وأكون أول ضارب بمهنا

وأكون أول فارس يغشى الوغى فأقود أول فارس يغشاها

وأبلغ منه قول الأعشى :

وإذا تجيء كتيبةً ملمومةً يخشى الكماة الدار عون نزالها
كنت المقدم غير لابس جنةً بالسيف يضرب معلماً أبطالها

ويقول زهير:

ومن هاب أسباب المنايا ينلته ولو رام أسباب السماء بسلم

وكقولهم:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

يقول هوميروس (ص ٦٨٥) :

وبصقيل عاملي إن تقتل لآيس النفس تدم والفخر لي

يقول أبو الفوارس عنترة (ص ٦٤٦)

لي النفوس ، وللطير اللحوم والوحش العظام ، والخيالة السلب

يقول هوميروس:

خلوت للطير فظفر ينشعب والأجنح الغضة ضرباً تضرب

أجاد عنترة في معنى زائد على هذا حيث قال :

وأجساد قوم يسكن الطير حولها إلى أن يرى وحش الفلاة فينفر

يقول هوميروس (ص ٦٨٩) :

وكم فتى مدبر قد بان كاهله فالسهم وأصله والرمح قائله

قال المتنبي (والعجيب هنا أنه اختار أيضاً لهذا المعنى هاء الضمير

المبني على الضم ، كما فعل هوميروس من قبل):

كم مقلة ولغت فيها أسننه ومهجة ولجت فيها بواتره

وخائن لعبت سمر الرماح به فالعيش هاجره والنسر زائره

في هجوم "أتريز" يشبه هوميروس ألم بطل مقدم بصوت امرأة في حالة

المخاض ، وهذا في رأيي معنى رديء رغم إيصاله المعنى المراد .

ينفذ بالأعراض والإراض ويصدغ المرأة بالمخاض

(ص ٦٣٨)

يتراسل ذلك مع ماقاله أوس بن حجر ، ولكنه لايشبه بطلاً بل أصوات الحرب ، وذلك أنسب : يقول عن الحرب :

لها صرخةٌ ثم إسكاتهٌ كما طرقت بنفاسٍ بكرُ

شبه الأصوات في الحرب ترتفع تارة ، وتنقطع أخرى ، بصوت المجاهدة في الولادة

وهو معنى جيد.

يقول هوميروس :

وهرب الطرواد والتصقوا	وفي الصدر هكطورُ مُندفقُ
كجلمود صخرٍ قد انتزعا	من الشُّم سيلٌ به اندفعا
له الغابُ مرتجةٌ ترتجفُ	إلى القعر حيث بعنفٍ يقفُ

(ص ٦٩٩)

حاول الرومان والإفرنج مسايرة هوميروس في هذه الصورة ولكنهم لم يحسنوا إحسان شيخ شعراء العرب امرئ القيس ، وهو القائل في معلقته بوصف جواده:

مِكْرٌ مِفْرٌ مَقْبَلٌ مُدْبِرٌ مَعَا كجلمود صخر حطه السيلُ من علٍ
على أن امرأ القيس زاد في المعنى: الإقبال والإدبار وأغفل ارتجاف الغاب والوقوف.

يقول هوميروس :

فبطش الغلمان بالغلمان وفتك الفرسان بالفرسان

إلى هذه الإشارة يقول عنتره :

ودنت كباشٌ من كباش تصطلي
نارَ الكريهة أو تخوض لظاها
ودنا الشجاع من الشجاع وأشرق
سُمر الرماح على اختلاف قناها
يقول هوميروس

وثمَّ "أتريد" يحضُّ الجندا
مقتضباً مقتضياً مُشدّاً
هبَّ على الأعداء مثل النارِ
شبَّت بغابٍ غضةٍ الأشجارِ
(ص ٦٣٣)

قال أبو النجم العجلي:

إنا لنعمل في الرؤوس سيوفنا
عمل الحريق بيباس الحلفاء
ومنه قول عنتره:
إذ أدبروا فعملنا في ظهورهم
ما تعمل النار في الحلفاء فتحترق
ويقول هوميروس :
تخضبت دماً بنقع فائرِ
من دورِ دولابٍ ووقع حافرِ
(ص ٦٥٠)

أحسن أبو الطيب المتنبّي في التراسل هنا بقوله:

وخاض بالسيف يجزُّ الموت خلفهم
وكان منه إلى الكعبين زاخره
حتى انتهى الفرس الجاري وما وقعت
في الأرض من جثث القتلى حوافره
وقال عنتره :
والخيل سودُ الوجوه كالحة
وقال أيضاً:

وعاد بي فرسي يمشي فتعثره
جماجم نثرت بالبيض والأسلِ
وأحسن من ذلك قوله:

حتى رأيت الخيل بعد سوادها
حمرَ الجلود خضبن من جرحاها
يعثرن في نَقع النجيع جوافلاً
ويطأن من نار الوغى عظماها

ومنه قول الحصين المرّي :

لئن غُدوةً حتّى أتى الليلُ ما ترى من الخيل إلا خارجياً مُسوّماً
يطّان من القتلى ومن قصَدِ القنا خباراً فما يجرين إلا تجشّماً

(ص ٦٥٠).

ولأبي تمام من هذا القبيل:

واكتست ضمّر الجياد المذاكي من لباس الهيجا دماً وحميماً
ننتقل هنا إلى دفقة أخرى من التصوير، ولكنها هذه المرة عن الأبطال
خارج ساحات المعارك ، حيث يتم التركيز هنا على وصف كلامهم وآرائهم
عموماً:

يصف هوميروس أحد أبطاله بقوله:

خبيرٌ على كل الأمور مُقلّبٌ له سطعت من مُحكم الرأي أنوارٌ

(ص ٣٣٠)

جرى شعراء العرب هذا المجرى في تشبيه الكلام السهل المنسجم بالشهد
وأمثاله.

وأما فصاحة المنطق وبلاغة التعبير فكثيراً ما يشبهونها بالدرر والياقوت
وأشباههما.

يقول هوميروس:

ولكن إذا فاضت منافث نطقه وصوتٌ جهيرٌ بالنفائس زخارُ
تتأثر من فيه النُهي برِداً همي (وسيفٌ حِجاءٌ بالبلاغةٍ بتارُ)

(ص ٣٣١)

وعلى سبيل التراسل، قول أعرابي في الرشيد:

جهير الرّواء جهير الكلام جهير العُطاس جهير النّغم
ويخطو على الأمر خطو الظلم ويعلو الرجال بخلق عمّ
(ص ٣٣١)

ويقول الصاحب بن عباد:

قلو أن ألفاظه جُسِّمت لكانت عقود نحور الغواني
ويقول عبد الله بن حامد الحامدي:

إني أرى ألفاظك الغرّا عطّلت الكافور والذرا
ويقول أبو اسحاق الصلبي للوزير المهلب:

لك في المجالس منطق يشفي الجوى ويسوغ في أذن الأديب سُلّافه
فكأن لفظك لؤلؤ متخلّل وكأنما آذاننا أصدافه
في تشبيه هوميروس الكلام بالبرد المنهمر، قلّما نجد له نظيراً في الشعر
العربي ، اللهم إلا بيتين لـ يزيد بن سياه الأصبهاني:

إذا ارتجل الخطاب بدا خليجٌ بفيه يمدّه بحرُ الكلام

كلامٌ بل مُدامٌ بل نظامٌ من الياقوتِ بل حَبَبُ الغمام

لاحظ تراسل شعراء العرب منذ العصر الجاهلي حتى الصاحب بن عباد،
والمُتنبّي في القرن الرابع الهجري ، وما بعده من عصور ، ومعنى ذلك أن
التراسل مع إلياذة هوميروس ، قد توالى على مدار العصور الأدبية في
الأدب العربي

يبرز (بصور) هوميروس "هيلانة" وهي المرأة الفاتنة التي كانت سبباً في
الحرب بين أمتين بما يعظم قدرها، لما فطرت عليه من فرط الجمال وطيب
الخلل، فتملّ بها المرأة الجامعة بين كل ما يدركه التّصور من جمال الخلق
والخلق معاً . وقد بالغ في وصف حسنهما الفتان وأطراها بكلام موجز، فقال:

ليس بدعاً إن كان هذا سناها وعليها تلاحمت أمتان

وتزَّيْتُ بزيٍّ أجملِ بنتٍ لِحَمِيها بحسَنِها الفَتانِ
وقد جماعها مثالا لرفقة العواطف ، وتَجَنَّبُ الرجال عِفَّةً وطهارةً، فتخرج
متبرِّقةً وجِلَّةً، كذلك المرأة التي وصفها الشَّنْفَرَى بقوله:
لقد أعجبتني لا سقوطاً قناعها إذا ما مشيت ولا بذات تَلَفَّتِ
ويقول عنها هوميروس أيضاً:

برزت ربَّةٌ بوجهٍ صبيحٍ غير أن البلاء بالويل داني

(ص ٣٢٥)

أي لم يبق للشيوخ بعد أن تمادت بهم الدهشة لجمالها إلا أن شبهوها
بالإلهات الخالدات.

وأقرب من هذا المعنى قول عنتره:

سجدت تُعظَّمُ ربَّها فتمايلت لجلالها أربأبنا العظماء

يقول هوميروس في وصف أغامنون:

ملك "بأحوال السياسة عارف عزوم بصمَاء المعامع جبارُ

(ص ٣٢٧) ، يقال إن الاسكندر المقدوني المعروف بذي القرنين كان يردد

هذا البيت كثيراً، ويعتبره أبلغ بيت في منظومات هوميروس كلها ، ويتَّخذُه
منهجاً وشعاراً.

يتراسل ذلك مع ما قاله أبو تمام:

ملكٌ له في كل يوم كريمةٍ إقدامٌ غيرٌ واعتزاًمٌ مجرَّب (ص ٦٣٠)

يرتبط بالصور والتصوير باعتبار علاقتهما الدائمة بالمكان ، محور التاريخ
بالوقت ، وليس الوقت على عمومه ، بل الوقت المحدد .

يقول هوميروس عن زَفَس إله الحرب ، وهو يساعد الإغريق (اليونان) في حربهم ضد الطرواد: (ص ٦٥٠) :

يحيط بالطرواد والأسطول والحرب والقاتل والمقتول
من البرزوخ لارتفاع المشرق جنْدُ تَرْدَى وسهامٌ تلتقي
وَأَنْ مَا الحطَّابُ يُضْنُو تَعْباً في غايه وظمأ وسغباً
ويطلب الراحة بعد الغائلة مُهَيَّئاً طعامه بالقائلة

العرب، اهتموا بساعات النهار جميعها، نظمها الشيخ ناصيف البازجي في قوله:

أول ساعة من النهار هي البكور، والبرزوخ طاري
والرأد والضحي المتوع بعدُ ظهيرة ، ثم الزوال عدوا
ثم الأصيل العصر ثم الطفُّ وبالحُدور والغروب تكمل
ومثال ذلك قوله في ساعات الليل:

أول ساعة من الليل الشفق وبعدها العشوة يتلوها الغسق
فهداة ثمة شرع ثم قل جنح وزلفة هزيع يا رجل
وبعد ذاك غَبَشٌ وسَحَرٌ والفجرُ والصبحُ الذي ينفجرُ

وكلها كما نرى تدل على ساعات مخصوصة يألفها العرب.

بقي أمر آخر هنا ، عن الخطيب وطريقة اتكائه على عصاه حين يخطب ، يصور هوميروس أغامنون وهو يخطب واقفاً متكئاً على عصاه أو صولجانه:

فعليه بين القوم مُتَّكئاً خَطَبَ المليك بكل جمعهم

وهذا بعينه ما نجده لدى العرب في الجاهلية، إذ كان الخطيب يقف على منبر (حيث يكون هناك منبر) وإلا إن خطب في العراء ، علا نشراً من الأرض ،

أو خطاب وهو على الراحة، ولا بد له من أن يأخذ بيده العصا أو المخرصة
أو القوس، وقد يخطب ويبيده القناة (الرمح). (٢٥٧)

قال معن بن أوس المزني :

فلا تعطي العصا الخطباء يوماً وقد تكفي المقادة والمقالا (ص ٢٥٨)

وفي العصر الأموي ، يقول جرير بن عطية الخطفي :

مَنْ للقناة إذا ماعىَّ قائلها وللأعنة يا عمرو بن عمار

وقال كثير :

إذا قرعوا المنابر ثم خطوا بأطراف المخاصر كالغضاب (ص ٢٥٨)

نلاحظ أن الشعر العربي في هذا الجانب يضيف أموراً نفسية وجدانية
يخلعها على الموقف.

من خلال هذه المحاور الرئيسية وما يرتبط بها أو ينشأ عنها ، حاول
هذا البحث أن يبلور بعض أشكال التراسل على طريق الدرس المقارن . وبما
تم إirاده هنا ، وغيره كثير ووفير ، نتراسل إلياذة هوميروس ، ونتناص في
كثير من مشاهدنا ، مع أشعار العرب عبر العصور ، لتمثل بالخبر التاريخي
والمثال الشعري : توارد الخواطر ، وتواصل الحضارات ، بما يجعل
للدراسة المقارنة أهمية كبرى في الكشف عن مدى ارتباط البشر ، وتوارد
خواطرهم الإنسانية ، على طريق تقارب الأمم والشعوب ، وتواصل
الحضارات : سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً .

